كنز في تارودانت

"قلت لك ألف مرة لن أبيع بيتي للأجانب، تنح عن طريقي الآن... هيا اغرب عن وجهي، لقد أتعبتني بنقاشاتك المتكررة .

- سيدتي... معذرة.... المبلغ كبير، لقد أضاف مارتان ثلاثين ألف درهم ! هذا ما أود إخبارك به.
- ليكن... لو أضاف إلى المبلغ مال الدنيا ما بعت شبرا واحدا من بيتي، أتمنى أن تكون هذه آخر مرة تعترضني فيها.

انصرفت المرأة غاضبة ، فقد ألح عليها هذا السمسار المحنك والمتمرس أيضا ، لم تستعص عليه صفقات عديدة واستطاع تفويت العديد من الدور القديمة والآيلة للسقوط للكثير من الزبناء الأجانب، فهو أحيانا يتواصل معهم عبر الانترنت ويصف لهم بضاعته لشغفهم بالسكن في تلك الدور المتهالكة بعد أن يتم إصلاحها والحفاظ على طرازها القديم ما أمكن، في حين يتحول البائع إلى شقة إسمنتية مرصوصة في الأحياء الجديدة في أطراف المدينة ، أو يطير إلى أكادير

ليشتري هناك شقة يتحول إليها ويصبح ضيفا على مدينته كلما زارها ، أما الحاجة راضية فلا يستهويها هذا ولا ذاك، بيتها ترى فيه طفولتها وشبابها وكهولتها، فقد ترعرعت فيه مع أبناء عمها إلى أن تزوجها أحدهم وقضت به معظم سنين عمرها ،كل أولادها أنجبتهم في ذلك البيت الكبير المساحة، المتواضع الهندسة، تجلس أحيانا في وسطه وتتذكر زوجها وأباها وأمها وهم يصلون جماعة في غرفه، تتذكر كيف كانت تحضر لأمها إناء الوضوء وتخترق البهو لتجلس في مدخله وتحمل سجادتها وتلهج بذكر الله، تعود بها الذكرى إلى اجتماعات العائلة في الأعياد والمواسم العائلية للتهنئة... ثم تقول في نفسها: " يستحيل أن يطأ هذا الرجل الفرنسي هذا المكان... صحيح أنا بحاجة إلى المال ولكن ... ماذا عساه أن يفعل بالبيت الذي يمثل جزءا من وجودي ؟ لا شك أنه سيتناول خمرا في موضع سجادة والدي، وسيبني حماما مختلطا حيث كنت ألعب بعرائسي...لا...لا... هذا ما حدث لبيت الحاج علي، لقد ندموا على بيعه وتحول بيتهم إلى شيء ثمين ليس في أيديهم، وهاهم الآن قد وزعوا ثمنه بينهم ولم يعد لديهم شيء... أيمكن أن يحدث هذا ؟ " .

هكذا تزاحمت التساؤلات في ذهن الحاجة راضية إلى أن قطعت عليها دقات على الباب شرودها فقامت لتفتح فإذا السمسار مرة أخرى:

– سيدتي، هل اتخذت قرارك الأخير ؟.... آ آ... إنهم أناس يحبون حضارتنا ... وقد أصبحوا يشترون الكثير من البيوت ويعيدون إصلاحها ويحدثون الحدائق في حواشيها، والسيد مارتان رجل ودود ... وهو لا يحب أن يستبدل هذا البيت بغيره.

قالت المرأة في غضب :

- اذهب فبعه بيتك أنت...أسمعت ؟ ... هذا هو ما سيوقف إلحاحك .

ضحك الرجل ضحكة وقال :

- يا لك من امرأة عنيدة، لقد بعت بيتي منذ خمس سنوات ، وأنا أزوره من حين لآخر دون أدنى اعتراض من صاحبه.
- أنت حر في أمرك... اذهب الآن ولا تمكث هنا ثانية وإلا ناديت على الشرطة.

دفعت الباب وأغلقته في وجهه فقال مغتاظا:

- هذا الباب الخشبي المتهالك ، أستطيع أن أدفعه بظفري ، ولكني احترم زوجك الفاضل رحمه الله....
رحمه الله.

صفقة البيع

ذهب السمسار عند مارتان وقال:

– سيدي ... بيوت كثيرة أجمل من هذا البيت ... تستطيع شراءها، لماذا هذا بالضبط؟ دعني آخذك في جولة إلى ضفاف " الواد الو اعر " وبساتين المدينة ... آه يا مارتان سترى أحزمة سكنية لسويسريين وانجليز وفرنسيس وإيطاليين وهي مساكن جميلة وجعلوا فيها حدائق رائعة... بداخل المدينة أيضا ، هناك الكثير من البيوت في الدروب والأزقة تستطيع شراءها، خصوصا التي توفي أصحابها ولم تعد تمثل لأحفادهم إلا كومة من التراب ، إنهم يتمنون أن يأتي اليوم الذي يتحولون فيه إلى البيوت الإسمنتية الجديدة في "المحايطة" أو في مدينة أكادير الجميلة ، ضع ثقتك بي يا مارتان وانس هذه العنيدة البغيضة، لقد عملت كل ما في وسعي لإقناعها، ثق بي.. عملت ما في وسعي.. ما رأيك أن أعرض عليك بيوتا أخرى ؟

- اسمع جيدا، يجب أن أحصل على هذا البيت بأي ثمن، هل سمعت؟ بأي ثمن!!

- لست افهم شيئا يا مارتان، كن واضحا معي حتى أستطيع مساعدتك.
- سأبوح لك بسر ولكن ... إياك أن تكشفه لأحد ... وإلا... وإلا كان لي معك شأن، وإذا كنت أمينا فستحصل على حصتك.
- حصة ؟ ماذا؟ قل لي... إنني مستعجل وأضمن لك كتمان السر.
- اسمع ، هذا البيت دفن فيه كنز كبير... هل علمت لماذا أنا أريده دون غيره؟ كنز ... أتسمع ؟ كنز ...

ضحك السمسار حتى سقط على قفاه وقال :

- حتى أنتم تؤمنون بهذه الأساطير....كنز...كنز ها ها....ها ها....
- تمالك نفسك واثبت، أنا جدي فيما أخبرك به.
- ولكن سيد مارتان، جئت من شمال فرنسا إلى" تارودانت " لأجل كنز ها ها!!... أما كان الأولى أن أراه أنا قبلك ... أنا ترعرعت هنا ... أتمنى أن تكون فقط تمزح.

- اتصل بالمرأة مرة أخرى، لابد أن يكون هذا البيت في حوزتنا ، وسأعطيك قسطا منه وستصبح من أغنياء هذه المدينة.
- من الأغنياء ؟ سأتدبر الأمر وأعمل ما في وسعي.

بسط يده وقال :

- أعدك... أعدك...
- حسنا...حسنا...الآن أصبحت سمسارا ذكيا...هيا!

خرج السمسار وهو يحدث نفسه وقد فغر فاه وشعر بأن شهيته للاغتناء ازدادت كما لم تكن من قبل وهو يردد : " كنز...كنز...كنز أتخيل أنني أشاهد رسوم الأطفال وقصص البحث عن الكنوز " .

بات السمسار يدير الأمر في مخيلته ويقنع نفسه بما قاله له مارتان ، حتى خطرت بباله فكرة رهيبة للدخول إلى بيت المرأة ولو من غير موافقتها.

بعد يومين هرع السمسار إلى الفندق حيث يقيم مارتان ، ودق باب الغرفة دقات متسارعة ، فتح مارتان الباب بخفة

وهو ينظر إلى السمسار الذي بدأ يأخذ الأمر بجدية أكبر وقال :

- صباح الخير، لقد فكرت في أمر يوصلنا إلى بيت الحاجة راضية بسهولة ، وأعتقد أن رفضها وإلحاحنا سيجعلها تشك وتثير الريبة من حولنا وهذا ليس في مصلحتنا.
- أفصح بسرعة...
- سنشتري أحد البيوت المجاورة لها ثم نحفر... أجل ... سنحفر من حولها ... ولكن لم تخبرني هل هذا الكنز في أعماق الأرض أم في الجدار الطيني السميك؟
- يا لك من سمسار ذكي !... هذه شهادتي لك احتفظ بها.
- أنا أشكرك يا مارتان.
- أيها السمسار اللبيب ، هل تحدثت إلى الجيران ؟ هل تأكدت أن أحدا منهم موافق على البيع؟
- هذا الأمر لا تكترث له، يمكنك الاعتماد علي، ابن أخت هذه العنيدة ورث البيت الملاصق لبيتها ،وذهب للعمل خارج البلاد، ولا تمثل له هذه الحفرة الخربة

شيئا، فقد بنى بيتا جديدا في حي" أقنيس" ... سأتصل به فورا إذا وافقت يا مارتان العزيز.

- أوه...أوه....كم أنت رائع وعملي... خذ هذا المبلغ لأجل تحركاتك ، هذه الصفقة يجب أن تتم ، ولكن لا تنس ما اتفقنا عليه، الأمر سيبقى سرا بيننا.

ما هي إلا أيام حتى كان البيت المجاور للحاجة راضية بحوزة مارتان.

انحنى ليستطيع الدخول من الباب الخشبي المتهالك، صمت رهيب بداخل الغرف !! وفي الوسط نما عشب كثيف مصفر كأن المكان تحول الى مقبرة، أخرج آلة صغيرة وقال للسمسار الذي كان إلى جانبه :

- انظر ... إنها ستدوي حين تكون مضبوطة إلى اتجاه الدفينة ... فهي آلة ذكية تستكشف كل معدن ثمين.

تأكد السمسار أن مارتان جدي جدا ومسلح أيضا فقال :

- هيا تفضل...هنا...هنا... نقطة حمراء تشتعل في هذا الاتجاه.

صاح مارتان :

- أخيرا...أخيرا... سنصبح أغنياء ولكن ... يجب أن لا يعلم بالخبر أحد.
- كيف ذلك يا مارتان، لابد أن نشرك معنا...
- أن نشرك معنا من ؟ أنت من سيحفر !
- أنا ؟ أحفر هذا التراب القاسي ؟ هذا مستحيل ! مستحيل ! حركاتي كلها لا تتجاوز الجلوس في مقاهي أسراك وتالمقلات ... أحفر ؟ ها .. ها ..
- أما تريد أن تصبح غنيا أيها الكسول ؟
- اسمع يا مارتان... كثيرون في هذه المنطقة يأتون لحفر الكنوز، ولم أكن أهتم بالموضوع من قبل ... ظننت أنهم يضيعون وقتهم ، وأن الكنوز الحقيقية فوق الأرض وليس تحتها ، حتى أتيت أنت وأثرت في نفسي هذه الحكاية، وأصارحك أنه في قرارة نفسي لازلت أعتقد أن الأمر أسطورة.
- نستدعي حفارا متخصصا إذن... وكتوما في نفس الوقت .
- هذا ما أراه، أما أنا فلا شهية لي في أن أزيح هذا العشب الأصفر من هذه الحفرة المهجورة ، سيما وأن

الحفر على أمتار كما ذكرت ، فالدخول لبيت السيدة راضية من تحت الأرض ليس بالأمر الهين...أجدادنا استعملوا في بناء هذه البيوت طينا مطبوخا و صلبا .

- وهل تظن أن هذا الحفار سيكتم سرنا؟
- يمكنك الاعتماد علي ... أنا اعرف كيف سأجعله يفعل ذلك.
- حسنا، اتصل به وقل له أن حصته ستكون وفيرة وأنا من سيحددها.

سكت السمسار قليلا وقال :

- مارتان يا عزيزي، أحب أن أسألك سؤالا وأرجو أن لا تغضب مني.
- كلا...كلا... تفضل فأنت شريكي في ثروتي.
- لماذا لم تنقب عن الكنوز في فرنسا؟ لماذا قطعت كل هذه الأميال لتشغل نفسك بهذه الدار العتيقة وشغلتني معك ، لم أعد أفكر بشيء آخر قط ؟

ضحك مارتان ضحكة ماكرة وقال :

- **أرجئ هذا السؤال ... هه ...سأجيبك عليه عندما تكون الثروة في أيدينا ونحن نقضي أياما في شواطئ ماربيا الساحرة أو موناكو يا ثعلب !**

ضربه على كتفه وقال :

- **لنخرج من هنا الآن ، لا تنس ، غدا ستأتينني بالحفار.**

الحفار

أسرع السمسار إلى مقاهي ساحة " أسراك" حيث يجلس العديد من أهل المدينة ويتداولون أحاديث وأخبارا متنوعة ، فعمد إلى أحد عمداء المقاهي واستدرجه للحديث عن خرافة الكنوز وأساطيرهم وقصص الجن وملوكهم ، فوجد الرجل يعرف أشخاصا عديدين حفروا مرارا دون أن يعثروا على شيء ، إلا أنه ذكر له بعض الأسماء التي تلقفها السمسار وذهب مسرعا إلى أحدهم في دكاكين المدينة ، وبدأ يجمع المعلومات دون أن يشعر به أحد، استطاع في نهاية المطاف أن يتعرف على حفار عريق ومن الطراز الأول، رجل في الخمسينيات من عمره ، شديد السمرة كأن في وجهه نارا من شدة لفح الشمس , قوي البنية يحمل "سبسي" في فمه دون أن يخرج دخانه منه وقد اتكأ على جدار في الرحبة القديمة وترك أشعة الشمس تداعب رأسه ، اقترب منه السمسار وسلم عليه باحترام ، لم يكن يعرف من قبل أنه متخصص في الحفر فقال له :

- هل معك شيء من الوقت يا عزيزي ... أريد أن أكلمك .
- كنز.. ربما...كنز... تريد أن تحفر مكانا ما ...أليس كذلك؟
- اصمت أيها الغبي ... اتبعني إلى الفندق حتى نتحدث بروية.
- الفندق؟ !.. حسنا ...حسنا... أنا كنت جائعا وربما سير الله لي طعاما معك في هذا الفندق.
- سيكون كل ما تحبه في يدك، ولكن تمهل فقط ... أرجوك.

دلفا الى الفندق ثم توجها نحو غرفة مارتان الذي كان جالسا في شرفة الفندق يتصفح خريطة للمنطقة وقد وضع النادل أمامه كوب عصير ليمون طفت عليه بعض قطع الثلج ، دق السمسار الباب دقات متسارعة ، وعندما فتح مارتان قال مستغربا:

- مرحبا .. مرحبا تفضلا...من حسن حظي أنني صادفت سمسارا ذكيا .

- أتيت بالحفار من تحت الأرض...ولابد أن تحسب هذا الجهد عند مكافأتي...

نظر مارتان إلى الرجل الأشعث وهو ينظر إلى كوب العصير لشدة حرارة الشمس وقال:

- كان عليك أن تصلح من شأنه ، سيفضحنا إذا شوهد معنا وهو بهذه الوساخة والقذارة، خذ هذا المال واذهب به إلى الحمام ولا تحدثه عن شيء مما دار بيننا حتى نكون نحن الثلاثة هنا.
- إنه لا يعرف الفرنسية يا مارتان، لا تنزعج منه ، هل تسمح أن يغتسل في حمام غرفتك؟
- حسنا، اذهب وأحضر له ملابس لائقة ولا تتأخر.

هرع السمسار إلى أقرب دكان في" الخضارة" ، واقتنى قميصا صيفيا وسروالا وقبعة وعاد قبل أن يخرج الحفار من الحمام، بعد خروجه قال له مارتان :

- الآن أنت أفضل... ما اسمك؟
- عبد العزيز هو اسمه، قلت لك إنه لا يعرف الفرنسية

رد السمسار وقد شعر أن شهيته للحصول على الكنز قد قويت ثم أردف :

- قل لي يا عبد العزيز كم حفرة حفرت في حياتك وأنا سأترجم لمارتان.

ضحك الرجل ضحكة عالية وقال :

- لا عدد لها...ولا حصر... ربما بعدد حفر المقبرة !
- يا إلهي !...كل هذا ومازلت فقيرا من جلساء حي الرحبة؟ ألم تحصل على كنز ما؟ كم سنة وأنت تحفر؟
- عشر سنوات !
- عشر سنوات؟ يا إلهي ...ولم تحصل على كنز واحد؟
- المهم أنا أحصل على ثمن الحفر ولا يهمني الأمر.

قال السمسار في دهشة:

- أسمعت يا مارتان ؟ قلت لك الكنوز فوق الأرض وليس تحتها بالعمل والفلاحة والعمارة و..

قاطعه مارتان وقال :

- اسمع، هذا ليس أوان المناقشات، ولم أقطع آلاف الأميال لأسمع هذا الكلام، أنا مقتنع برأيي ...اضرب له موعدا في الغد لنبدأ في الحفر.

قال عبد العزيز حين أخبره السمسار بالموعد؟

- الحفر يكون دائما بالليل، وصب الماء الكثير على التراب حتى لا تسمع أصوات نقرات الفأس وينفضح الأمر.
- ليكن غدا إذن.
- هل ستدفع لي الآن شيئا.

صاح السمسار في استغراب :

- مارتان...الرجل يريد مقدما قبل أن يفعل شيئا.
- أعطه هذه المائة درهم ، فهذا سيحفزه ... واشترط عليه أن لا يخبر أحدا وأنه سيشاركنا الكنز.

أخذها السمسار وأعطاها لعبد العزيز ومعها كيس ملابسه الوسخة وقال :

- أسأل الله أن تخرج هذه المغامرة إلى الوجود، كلامك جعلني أشعر بالفشل.
- أنا نفسي أجدد الأمل منذ عشر سنوات في الحصول عليه، أما تعرف أن البحث عن الكنوز يشبه لعبة القمار؟ كلما حفرت كلما بدت لك القطع الذهبية تتراقص أمامك.

ضحك الرجلان ونزلا الدرج وهما يتواعدان على الكتمان والحضور في الموعد.

علمت الحاجة راضية أن السمسار باع بيت ابن أختها المجاور لها و لكنها لم تكثرت للأمر كثيرا ، وإنما حزنت لأنه لم يحترم بيت والديه الذي نشأ فيه ، فهي لا ترضى أن ترى الأجانب يمرحون ويعاقرون الخمور في بيوت كانت عامرة بالصلاة والذكر والسجود لله تعالى، بعضهم احترم خصوصية المدينة فأغلق عليه بابه ، وبعضهم حولها إلى مواخير سياحية رهيبة تتصيد الشباب والشابات بل وحتى الأطفال أحيانا، كل الرياضات القديمة والدور العتيقة مهددة بأن تتحول إلى إقامات سياحية ولا يعرف ما بداخلها إلا الله تعالى.

باتت تسمع دقات بالليل من حين لآخر وهي تظن أن مارتان بدأ في الإصلاح ، ويفضل العمل ليلا لسخونة الجو نهارا، فقد كانت الحرارة شديدة جدا جعلت الحاجة راضية تضع برادا خزفيا كبيرا يرتوي منه أطفال الحي إذا عطشوا ، كما أن السمسار أصبح يغسل وجهه من مائه أحيانا إذا علاه الغبار ، فقد كان يعمل ما في وسعه حتى لا يعلم احد بما يجري بداخل البيت المهجور ،وأصلح مكانا يجلس فيه

مع مارتان ، يلعبان الورق ويتحادثان، بينما يحفر عبد العزيز ويخرج التراب إلى ثقب مواز، ومن حين لآخر يجرب مارتان الآلة التي ترن كلما اتجهت نحو مكان الحفر، كانا يترقبان كل سعلة أو عطسة للحفار ظانين أنه سيخبرهم بأنه عثر على الكنز، وكانا يمنعانه من الصعود للاسترخاء قليلا حتى يلتقط أنفاسه، كما أن الضوء الخافت الذي كانا يستعملانه يشعره بالنوم أحيانا ، كانا يحسبان الساعة تلو الساعة والدقيقة تلو الأخرى.

مضت ثلاثة أيام وهم على تلك الحال، فقد استطاع عبد العزيز الوصول إلى أسفل غرفة الحاجة راضية بالضبط ، وبدأت تشعر أن شيئا ما يحدث ، سيما وأنها رأت بعض علامات التشقق والتكسر في الجدار، كما أن أرضية الغرفة أصبحت تشعرها بأن شيئا ما يجري .

وفي صباح يوم خرجت واتصلت هاتفيا بابن أختها وهي غاضبة وقالت:

- لماذا بعت هذا الفرنسي منزل والديك ؟

رد غاضبا :

- وما العيب في ذلك ؟ فأنا أعيش في بلده وهو يحب أن يعيش في بلدي ؟
- أخشى يا بني أن يحول البيت إلى إقامة سياحية فيقلق راحتي، إضافة إلى أنني أذكر أن والدك هو الذي استطاع قتل الجنرال الفرنسي أيام الاستعمار الذي أمر بمذبحة رهيبة راح ضحيتها العشرات من أفاضل مدينتنا ، ربما يكون هذا الذي أدخلت الى دارنا أخوه أو ابنه !
- ما هذا الهراء ؟ اسمعي يا خالتي ... البيت بيتي وأنا حر.
- لقد تصدعت غرفتي يا بني ،فهو يحفر منذ ثلاث ليال وأحس أن بيتي أصبح مهددا.
- حسنا، اهدئي ...سأتصل بالسمسار وأخبره بانزعاجك مما حصل.

رن هاتف السمسار حينا ، وتلقى استفسار الرجل عن الحفر والإصلاح الذي أفسد بيت خالته، وجعل أرضية الغرفة كأنها تهتز ، وما أن سمع كلامه حتى قال لمارتان :

- هذه المرأة ستفضحنا ... أظن أننا اقتربنا وأصبحت الآلة تدوي بشكل أكثر دقة ، ماذا سنفعل؟

قال مارتان دون أن يفكر.

- نقتلها في سكنها ونستمر في عملنا.

فزع السمسار حين سمع كلامه وقال :

- نقتلها ؟ لا...لا... هذا كلام غير ممكن يا مارتان.
- أنسيت أنها رفضت بيعنا بيتها الخرب، وأكدت لها مرارا أنه إقامة شخصية وليس ماخورا سياحيا كما تدعي، وحتى لو كان كذلك، أنا حر حين اشتري بيتي وأجعل فيه ما أشاء.
- اسمع يا مارتان، سنفهمها أننا سنصلح ما فسد من جدران وأرضية بيتها ونخرج من المشكلة.

لم يرد مارتان وألقى نظرات ملؤها الغضب والحنق.

وفي اليوم التالي ، استمرا في الحفر بعد الغروب ، وبعد أن صلت الحاجة راضية العشاء ونامت على شقها الأيمن وبدأت تقرأ آية الكرسي سمعت جزءا من داخل غرفتها ينهار وبدأت أخشاب السقف تتحرك ، ففزعت وحملت غطاءها وتلفعت به ثم هرعت نحو البيت المجاور تطرق الباب وهي تصرخ:

- ماذا تفعلون؟؟؟ أنتم تهدمون بيتي... السقف سينزل علي !!

فتح مارتان الباب بسرعة وجذبها نحو الداخل وهوى على رأسها بأحد فؤوس الحفار فخرت صريعة وأحاطت بها بركة من الدماء، شعر السمسار برعب شديد تملكه وأشفق لحال المرأة وصاح :

- لقد قتلتها يا مارتان !
- ليس لدينا خيار، إنها تصرخ... هيا ارم بها في تلك الحفرة وأهل ترابا كافيا لكتم صوتها.

اشتدت دقات قلب السمسار وارتعشت يداه فنادى على الحفار ليصعد ويساعد في دفنها، فزع هو الآخر لما رأى ، وكان يرى ذلك المنظر لأول مرة في حياته ولا يشبهه إلا بما يراه في سينما "درب الجديد" في الأفلام الأمريكية والهندية.

اضطرا أن يجذبا المرأة إلى الحفرة وسبحتها حول يدها كالمعصم يطوقه السوار، كان رأسها مقسوما إلى نصفين، بينما صار الحفار يوسع المكان ويسخر من نفسه حين تحول مابين ليلة وضحاها إلى حفار للقبور أيضا ! كانت دموعه تمتزج

بالتراب والحزن يعصر قلبه ، أما السمسار فقد خانته رجلاه وجلس.

وبعد ساعة كان كل شيء قد هدأ ... لم يعد بمقدور السمسار ولا عبد العزيز أن يتحدثا بالطلاقة والدعابة اللتين عهدا الحديث بها أمام مارتان، بل أصبحا خائفين منه طول الوقت، أما هو فقد أشعل سيجارته والآلة في يده يجربها كل حين.

عاد الحفار إلى عمله وبعد قليل صعد وهو يقول :

- اشعر أنني أصبت بدوخة شديدة وأختنق شيئا فشيئا.

صرخ مارتان:

– هل عثرت على شيء ما ؟

– عثرت على نفق.

قام مرتان مسرعا وهو ينتظر أن يترجم له السمسار ما يقول الرجل دون أن ينسى أية تفاصيل وقال :

- قلت نفقا !

- أحدهم حفره حتى يستطيع وضع الكنز بسهولة، لقد اقتربنا هيا...هيا...انزل.

كان عبد العزيز يمسك برأسه ويصب الماء على وجهه وهو يقول :

– تحت هذه المدينة العديد من الأنفاق،لا تنس أنني حفار قديم .. ربما حفرها الأمازيغ عندما جاء الفاتحون المسلمون من الشرق في قرون غابرة... هذا ما يقولون ... أما أنا فلست أفهم في هذا الأمر شيئا.

اقترب منه السمسار وقال :

- ربما حفرت حفرة عميقة، نخشى أن تصل إلى الماء .

ضحك الحفار وقال :

- الماء ؟... الجفاف والضيعات العملاقة التي نهبت الفرشة المائية من تحت الأرض لم تترك لمثلي ومثلك أيها السمسار البئيس فرصة للحصول على قطرة ماء، ربما علينا أن نتحول يمينا، قل لهذا المارتان أن يشغل تلك الآلة المنحوسة إن كانت هي الأخرى تصدقه و إلا فإني رأيت الباحثين عن الكنوز يحضرون السحرة والمشعوذين ويصلون صلوات كثيرة لملوك الجن ويستحثوهم أن يسمحوا لهم بحمل الدفائن.

- ها...ها... مجرد أوهام، ربما أطاح بهم الإنس بسبب طمعهم !
- أرى أنك أصبحت فيلسوفا.
- وما معنى فيلسوفا؟
- يعني الذي ينبش فيما لا يعنيه.
- الذي ينبش والذي يحفر صديقان، وأرى أنني جمعت المهمتين إلا أنني لست قاتلا، لا تترجم له هذه.
- لا تخف إنه يسجل كل حواراتنا !
- يسجل؟...يسجل؟...نعم؟ هكذا يكون الأبطال، مارتان بطل...إنه شهم ورائع ويستحق كل التقدير والاحترام.

كان مارتان مشغولا بتعديل الآلة جهة اليمين وجهة اليسار وفجأة ، بدأت ترن بقوة في اتجاه الغرفة الثانية ... امتلأ وجهه حمرة وأسفر عن أسنان صناعية صفراء وقال :

- من هنا !...من هنا؟ هيا عاود الحفر الآن .

قال عبد العزيز في حيرة :

- أصب الماء أولا... انتظر... يا مارتان.

أمسك السمسار بالمصباح الصغير وهو يردد:

- هذه الآلة ذكية، إنها بدأت تصرخ كما لو كانت إنسانا يشعر بالجوع.

قال مارتان وهو يفرك أصابعه:

- بعد يوم أو يومين سنصبح أغنياء، إنه كنز عظيم .

قال السمسار في سذاجة:

- هل يمكن أن تقول لي من أخبرك؟
- العرافة يا عزيزي.
- انتم متقدمون وتذهبون عند العرافات مثلنا؟
- أيها الغبي، لقد كانت سائحة في هذه المدينة العتيقة ، وقالت بأنها مدينة صغيرة وجميلة وهادئة عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة ،وظهر لها أن فيها الكنوز ويقصدها الأغنياء لاستخراجها.
- ولكن عبد العزيز يحفر منذ عشر سنوات ولم يعثر على شيء، انظر إلى ساعديه كيف أصبحا مفتولين من كثرة ما أمسك بالفأس وكأنه حامل أثقال !
- هذا الحفار منحوس وعليه علامات الغباء، وهذه العصا التي يدخن ستزيد من بؤسه.

توجه السمسار نحو عبد العزيز وترجم له ما قال مارتان ليحفزه على المزيد من الحفر، ولكن هذه المرة في الغرفة المجاورة للتي كانوا فيها ، بينما حمل مارتان هاتفه النقال واتصل بالعرافة لمساعدته فأخبرته أن بعض الكنوز لتظهر وتتجلى، لابد من ذبح طفل بمواصفات معينة على ترابها ، لم تنس أن تلقنه تعاويذ يقرأها قبل ذلك باللاتينية !!!

صرخ السمسار هذه المرة حين طلب مارتان منه أن يأتيا في الصباح ويترقبا الأولاد الذين يأتون لشرب الماء أمام بيت الحاجة راضية من البراد الطيني وقال :

- ذبح طفل ؟ مستحيل ... إلا هذه...إن صورة تلك المرأة المسكينة مازالت ماثلة أمامي.
- اسمع يا عزيزي... لقد قطعنا شوطا كبيرا واقتربنا... ولا يمكننا الآن بعد أن خسرنا مالنا ووقتنا أن نرجع خاويي الوفاض.
- أرجوك يا مارتان، هؤلاء الأطفال أبرياء ... صدقني ... نفسي لا تطاوعني.
- حسنا سأفعل أنا ذلك بنفسي ... هه ...ولكنني لا أعرف لغتهم ، فهل ستسعفني؟

-

في صباح اليوم التالي ، أحضر مارتان خمسمائة درهم وطلب من السمسار أن يقتني بها أصناف الحلويات ، وأخذ يوزعها بنفسه على الأطفال بعد أن يفتحوا أيديهم فيتأمل شكلها ويتفرس في عيونهم حتى وجد بغيته وقال:

- صاحب القميص الأزرق... أسمعت؟
- إنه ابن رجل بسيط يبيع الشيح والزعتر في سوق " جنان الجامع " ولا حول ولا قوة له.... نفسي لا تطاوعني.

رد مارتان بكل برودة.

- علي به الآن، أرسله ليحضر لنا سجائر، واصرف الآخرين عن المكان.
- أعطني مالا وسأرسلهم إلى السينما.

قال مارتان متعجبا :

- سينما؟ وهم دون الثامنة عشرة !
- نعم...نعم... حتى لو كان عمرك سنتين فبإمكانك مشاهدة أكثر الأفلام سخونة وإجراما ! ولا أحد يمنعك من ذلك.
- هذا حسن إذن...تصرف.

وبعد لحظات كانت قطرات دم الغلام الصغير تطفو على الحفرة الترابية، ومرغ مارتان السكين في التراب ونزع من يديه السجائر التي لف عليها أنامله الصغيرة حين ضغط عليه برجله نحو الأسفل وأجهز عليه، ثم بدأ يتلو ترانيمه السحرية الخاصة، في حين كان السمسار وعبد العزيز يذرفان دمعا، فهما يعرفان الغلام ووالده جيدا ، وشعرا للتو أنهما ذهبا بعيدا وراء مارتان.

نظر الواحد منهما إلى الآخر ولم يستطعا أن يقولا شيئا، فساد صمت رهيب لم تقطعه إلا تلك الآلة القاتلة تدوي وتشتعل أزرارها الحمراء فصاح مارتان !.

- الآن...الآن... لقد أعانتنا الأرواح، بدأت أشم رائحة الكنز !!

شمر عن ساعده وقرر أن ينزل إلى الحفرة بنفسه ، فساعده السمسار على ذلك، أما عبد العزيز فبدأ يحفر بوتيرة أسرع في اتجاه عقرب الآلة حتى أن السمسار وضع عليها منديلا لكي لا يخرج صوتها المدوي إلى الخارج.

استمروا على هذه الحالة ساعة تقريبا ثم صاح الحفار:

- بعد عشر سنوات من الحفر، أظن أن فأسي هذه المرة ستسعدني، شيء صلب يدفع بالفأس نحو الأعلى حتى لا أستمر، اقرأ تعاويذك يا مارتان ! قل له أن يقرأ ولا يتوقف.

نزع مارتان الفأس من يده وضرب الضربة الأولى والثانية فغاصت الفأس في التراب، وحين ضرب الثالثة عادت الفأس نحوه فبرزت قطعة صدئة من الحديد فاجتهد في كشفها، أما السمسار فكان يصب المزيد من الماء على التراب حتى تسهل إزالته ويمسك المصباح باليد الأخرى، فصاح عبد العزيز وقال للسمسار:

- قل له أن يناولني الفأس، فهذه مهمتي وهو لا يحسن الحفر، انني أخشى أن يكسر الحديد فهو صدئ جدا ولا بد من الحفاظ عليه كي لا يضيع رزقنا بعد عشر سنوات من الحفر... عشر سنوات كاملة ضاعت من عمري ولم أعد أحسن عملا غير الحفر... ولو كنت ألصق الحفر بعضها ببعض لسار أهل هذه المدينة في طريق طويل تحت الأرض !

ضحك مارتان ضحكة ساخرة حين ترجم له السمسار كلام الحفار ، ولم يخف هو الآخر فرحه وسروره بالحصول على مكافأة عمره، فقد قضى جل وقته بين البيوت الخربة يغري أهل المدينة ببيعها للسياح ويأخذ نصيبه بعد إبرام عقد البيع ، وتدرب على التخاطب باللغات وعلى الانترنت، يشعر في كل مرة أنه بحاجة إلى بيع بيته ألف مرة لو كان يصلح لذلك، سيرتاح الآن ويصبح غنيا ويشتري ضيعة في "هوارة" أو "أولاد برجيل" ويجلس في مكتب فاخر للسمسرة في البيع والإيجار.

وبعد برهة دفع الحفار بالجسم الحديدي ، فإذا هو برميل متين كبرميل البترول، حاول أن يدحرجه يمنة ويسرة دون جدوى... إلى أن قرر صب المزيد من الماء والانتظار حتى الصباح !

لم يشأ أحد منهم أن يذهب إلى بيته، وظلوا يفكرون فيما سيفعلون بالمال ، وكيف سيصرفونه دون أن تشعر بهم السلطات أو الأقارب و الجيران.

وفي الغد ، استطاع عبد العزيز دحرجة البرميل بمساعدة مارتان إلى الأعلى، وما أن صعد حتى رأى شيئا

مكوما عند الحفرة فإذا هي جثة السمسار ملقاة على الأرض !!

فزع عبد العزيز واقترب من مارتان يستجديه كي لا يقتله هو الآخر، إلا أن رصاصة كاتم الصوت استقرت في رأسه مخترقة عينه دون رحمة !

استراح مارتان قليلا ، ثم دخن سيجارته ، ضرب البرميل ضربة واحدة بالفأس فإذا جثة متآكلة !

اقترب منها فوجد نياشين فضية عليها تحمل العلم الفرنسي !!

إنها جثة الجنرال الفرنسي الذي قتله زوج أخت الحاجة راضية إبان الاستعمار!!.

الكلاب السوداء